﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ [الحج: 68 - 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهما:

ينصر الله عباده المخلصين ولو بعد حين

لمّا أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ بالإقبال على أموره العظام، والإعراض عن منازعة أعداء منهج الإسلام، وكانت عادتهم الإصرار على موقفهم، والجدال عن باطلهم، أخبر سبحانه نبيَّه ﷺ بإجابتهم إن أبوا إلّا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجَّة عليهم، ولمّا كانت النفس تتشوَّف دائمًا إلى الانتصار؛ أخبر سبحانه أنَّه سيقضي يوم القيامة بحكمه بين المؤمنين والكفّار؛ ففريق بعدها إلى الجنَّة وفريق إلى النّار[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰدَلُوكَ﴾: (جدل) أصلٌ يدلُّ على استحكام الشَّيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[2]، والجَدْلُ: شدَّة الفَتْل، يقال: جَدَلتُ الحبلَ أجدُلُه جَدْلًا إذا شَدَدْتَّ فتْلَه، وفَتَلْتَه فتْلًا مُحْكَمًا، ومنه قيل لزِمام الناقة: الجَديلُ[3]، وجَدَلْتُ البناء: أحكمتُه[4]، ومنه الجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.

والاسم منه الجَدَل، وهو شدَّة الخصومة واللَّدَدُ فيها والقدرة عليها[5]، والجَدَلُ: مقابَلَةُ الحُجَّةِ بالحُجَّة، والمُجادَلَةُ: المناظَرةُ والمخاصَمَةُ[6]، والمجادلةُ مذمومةٌ في الأمور الظاهرة التي لا تَحْتَمِلُ الجدالَ[7].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 90 - 91.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).

والجِدالُ سُمّي جِدالًا؛ لأنَّ المتجادِلَين كأنَّهما يَفْتِلُ كلٌّ واحد منهما الآخر عن رأيه بتقوية قول نفسه، وتضعيف قول خصمه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾.

2) ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على كون أو بقيَّة بعد ذاهب أو وراءه في ظهره[2]، والخَلْف: ظرفُ مكان مثلُ وراء، وهو ضدُّ القُدّام، وخَلَف ضِدُّ تقدَّم وسَلَفَ، والمتأخِّر لقصور منزلته يقال له: خَلْفٌ، والخَلْف: الظَّهْر[3]، والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كلُّ واحد من الخصمَيْنِ طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله أو فعله، والخِلافُ: أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيِّن المولى ﷻ في هاتين الآيتين للرَّسول الكريم ﷺ ما سيفعله إذا استمرَّ هؤلاء المشركون على جدالهم وتعنُّتهم بالباطل فيقول: وإن جادلك يا محمد هؤلاء المشركون بالله في نُسُكِكِ وعِبادَتِكَ بعد ظهور الحقِّ وإلزام الحجَّة، فقل على سبيل التَّهديد والوعيد: الله أعلم بما تعملونه من الكفر والتَّكذيب، وهو سبحانه الَّذي سيقضي بينكم يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه مِنْ أمر الدّين، وستعلمون حينئذ أيُّها المشركون مَنِ المُحِقُّ مِنَ المُبْطِل[6].

الله العليم بحالهم وكثرة جدالهم وهو المجازي لهم على أعمالهم

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلف).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 398.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 628 - 629، والهرري، الحدائق: 18/ 414.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾:

المعاندون قوالبُ خاوية، وأشباحٌ عـــن المـعـــاني خالية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ هي العاطفة[1]، حيث عطفت هذه الجملة الكريمة على جملة ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، والمعنى: إن تبيَّن عدمُ اقتناعهم بالأدلَّة التي تقطع المنازعة، وأبَوْا إلّا دوام المجادلة تشغيبًا واستهزاء ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

فهو تأكيد للأمر الذي أُمر به النَّبيِّ بالدعوة إلى ربِّه بالكتاب المستقيم الذي معه، دون التفات إلى ما في أيدي أهل الكتاب، ودون استماع لما يلقون إليه من مسائل يريدون بها إثارة الجدل وبعث الشُّكوك عند المنافقين ومَن في قلوبهم مرض، فهذه الآية الكريمة تدعو النَّبيِّ ﷺ إلى أن يمضي في طريقه، وأن يدع أهل الكتاب وما يجادلون فيه، وحسبُه أن يلقاهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

علَّم اللهُ رسولَه ﷺ مـواجـهـة المِراء، والرَّدَّ على أهل الأهواء

التَّعبير بالجملة الشَّرطية يفيد نوعَ توكيد؛ ذلك أنَّها ترتِّب النَّتائج على المقدِّمات، فمتى وقعت المقدِّمة فالنَّتيجة تابعة لها، آتية في إثرها؛ لشدَّة ارتباطها بها.

وهذا يدلُّ على تهيئة النَّبيِّ ﷺ لتوقُّع حدوث المجادلة منهم بالباطل، فليُعِدَّ الرَّدَّ الذي علَّمه الله إيّاه قبل أن يتفوَّه الكافرون المعاندون بحرف من شنيع قيلهم.

والمعنى: وإن أبَوْا لِلجاجهم إلّا المجادَلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأنَّ الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1094.

تستحقّون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به، وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين[1].

نكتة التّعبير بـ(إن) دون (إذا):

من شأن الهُدَى أن يقطع النِّزاع لوضوح البرهان، فكيف يحصل بعده كُفران

الأصل في استعمال (إذا)، أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل، مختصٍّ من بينها بوقوع حدثٍ فيه مقطوعٍ به، والدَّليل عليه: استعمال (إذا) في الأغلب الأكثر في هذا المعنى؛ ولهذا كثر في الكتاب العزيز استعماله، لقطع علّام الغيوب سبحانه بالأمور المتوقَّعة[2].

ولا يستعمل (إنْ) إلّا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها؛ ولذلك قبُح (إن طلعت الشَّمس آتِك) إلّا في اليوم المغيم[3].

وهذه هي النُّكتة هنا؛ فإنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ من شأنه أن يقطع كلَّ جدل، وذلك لوضوح الدَّلالة وسطوع البرهان، فكيف يأتي بعد ذلك إعراض أو كفران؟!

ولكن لمّا كان الهوى المتَّبع من الآفات المهلكات، وكان لا يخلو منها قلبُ جاحدٍ ونفسُ مُنكِرٍ كانت المجادلَة متوقَّعة دون جزم بها، ومع ذلك هيَّأ اللّهُ تعالى رسولَه الكريم ﷺ لمجابهتها والرَّدِّ عليها.

دلالة التّعبير بـ﴿جَٰدَلُوكَ﴾ مادّة وصيغة:

دلَّ الجدال على أنَّ القوم لا يريدون هداية، بل صدًّا واتِّباعًا للغواية

الجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأنَّ المتجادلَيْن يفتل كلٌّ واحد الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسانِ صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصَّلبة[4].

والمادَّة تدور حول معاني الإحكام والشِّدَّة والامتداد[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 169.
(2) الرضي، شرح الكافية: 3/ 185.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 440.
(4) الراغب، المفردات: (جدل)، والبروسوي، روح البيان: 6/ 58.
(5) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جدل).

فالجدل: إحكام البناء، والجدال في مسائل الحقِّ والباطل: إحكامُ كلِّ مجادلٍ قولَه ليستطيع أن يزيِّف الحقَّ، أو أن يزيِّف كلام خصمه، وهذا مأخوذ أيضًا من جدل الحبل؛ لأنَّ أجزاء الحبلين المجدولين تتداخل فيكون ذلك أقوى، فالجدل من تمتين الشَّيء وتقويته، وكذلك الجدال؛ فهو محاولة تقوية الحُجَّة أمام الخصم، وإنَّه شاع في قول الباطل، والمجادلة في الحقِّ، وهذا النَّوع من الجدال من شأنه أن يبعثر الحقَّ، ويشكِّك فيه[1].

فقوله تعالى: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾ يدلُّ على أنَّ القوم لا يريدون هداية، بل يريدون صدًّا عن سبيل الله وكفرًا به سبحانه، نعوذ بالله من الخذلان!

نكتة حذف متعلّق الفعل ﴿جَٰدَلُوكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي في شيء من دينك بشيء ممّا تقدَّم من أقوالهم السَّفسافة أو بغيره[2]، فالحذف لإفادة التَّعميم، ليصدق الرَّدُّ على كلِّ مجادلة، فوقت الدَّعوة أثمن من أن تأكله المجادلة بالباطل؛ إذ ليس مِن ورائها طائل، فلا ينبغي صبُّ الماء في أرض أجادب، والأرضُ الطَّيِّبة له ظمأى.

الحذف للعموم، وهو غرض بلاغيٌّ مأموم

معنى الفاء في: ﴿فَقُلِ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ هي الفاء الرّابطة، وتوحي بسرعة ترتيب الجزاء على الشَّرط؛ أي: لا تتمهَّل في إجابتهم بما علَّمك الله، ولا تمهلهم وقتًا يتمكَّنون فيه من منازعتك، بل اقطع عليهم سبيل كيدهم، وأمِتْهُم بغيظهم، وأفشل مخطَّطهم[3].

اقطَعْ عليهم سبيلَ كيدهم، وأمِتْهم بغيظهم

دلالة الأمر بقوله تعالى: ﴿فَقُلِ﴾:

الأمر في الآية على حقيقته؛ إذ إنَّه صادر من الأعلى، وهو هنا

أرشد الله نبيَّه ﷺ لمواجهة المِراء، وصَلَفِ السُّفهاء

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5024، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9923.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 90.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.

مسوق لغرض النُّصح والإرشاد، إذ يرشد ربُّ العالمين رسولَه الأمين ﷺ إلى ما يواجه به المِراء، وصلف السُّفهاء.

ففي هذه الآية أدبٌ حسَن علَّمه الله عبادَه في الرَّدِّ على من جادل تعنُّتًا ومراءً ألّا يجاب ولا يناظَر، ويُدفع بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ[1].

غرض تقديم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ اتِّباعًا للأصل في بناء الجملة الاسميَّة، ولإفادة نكتة بلاغيَّة بديعة، وهي إرادة التَّفخيم والتَّعظيم الحاصل بتقديم لفظ الجلال بما يحويه من معاني الجمال والكمال، وبما يحدثه في القلوب المُحِبَّة من تقديس وإجلال، وفي القلوب المعرضة من تخويف من النَّكال.

تقديم العظيم دالٌّ على التَّفخيم والتَّعظيم

كما أفاد معنى التَّخصيص، فإنَّ الله وحده الذي أحاط علمه بكلِّ شيء، وكلُّ هذا مستفاد من البدء بالاسم الجليل.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو كناية عن قطع المجادَلة معهم[2]؛ أي: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول[3]؛ فإنَّ الجدَل يُجدي مع القلوب المستعدَّة للهدى، لا مع القلوب التي تصرُّ على الضَّلال، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد معهم، فاختصِرِ الجدَلَ معهم، لأنَّهم لا يسعَوْنَ إلى الاستيضاح والتَّعلُّم، وإنَّما يجادلونك تَعَنُّتًا[4].

كِلْهم إلينا عند ما رامـوا من الجدال

نكتة الإدماج في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إدماج بتعريض بالوعيد

في تأكيد علم العليم المجيد تهديد شديد، ووعيد أكيد

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 94.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 453.
(4) القطان، تيسير التفسير: 2/ 468.

والإنذار بكلام موجَّه صالح لما يتظاهرون به مِن تطلُّب الحجَّة، ولما في نفوسهم من إبطال العناد كقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة: 30][1].

أي ليس لي أن أحاسبكم على افترائِكُمُ الكذبَ على الله، فإنَّ الله سبحانه هو أعلمُ بما أنتم عليه ظاهرًا وباطنًا، وهو سبحانه الذي يتولَّى حسابكم وجزاءكم[2].

فائدة التّعبير بصيغة التّفضيل: ﴿أَعۡلَمُ﴾:

أفعل التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ ليس على بابه، فلا مفاضلةَ في علم الله تعالى، إنَّما المعنى أنَّ الله يعلم بما تعملون عِلمًا ليس فوقه عِلم، وإنَّ عِلم الله بأعمالكم سيبيِّنه يوم القيامة[3].

لا مفاضلَة في علم الله، ولا يحيط بأعمال العباد أحد سواه

فالقصد من ذلك المبالغة، وهذا مناسب للخطاب الموجَّه إلى منكِرين أو متردِّدين.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[4]، وهذا هو معناها هنا، فكأنَّ علم الله تعالى قد التصق بكلِّ عمل عملوه ويعملونه، فلم يفارقهم، ولم يغيبوا عنه، وهذا من كمال علم الله تعالى الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، وفي هذا من التَّرهيب ما فيه؛ فإنَّ المحاسبة ستشمل كلَّ عمل.

ليس بعد إيضاح الأدلَّة وبيانها إلّا التَّحذير من كُفرانها

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدريَّة: فعلى الأوَّلَيْن، مبنيَّةٌ على السُّكون في محلِّ جرٍّ

لا تخفى على الله خافية، وسواءٌ في علمه كلُّ ماضية وآتية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1095.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5024.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

بالباء، والجملة بعدها صِلتُها، أو صِفتُها، والعائد أو الرّابط محذوف؛ إذ التَّقدير: الله أعلم بالذي تعملونه، أو: الله أعلم بشيء تعملونه.

وعلى اعتبارها مصدريَّةً تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بالباء، والتَّقدير: الله عالم بعملكم[1].

والفرق بين هذه التَّأويلات الثَّلاثة: أنَّ المصدريَّة فيها معنى التَّعميم؛ أي عالم بجميع أعمالكم، ومنها مجادلتكم بالباطل؛ أي: وإن أبَوْا لِلجاجهم إلّا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع؛ فادفَعْهُم بأنَّ الله أعلم بأعمالِكم وبِقُبْحِها وبما تستحقّون عليها من الجزاء[2].

أمّا الموصولة: ففيها معنى التَّخصيص؛ أي: الله عالم بجدالكم هذا ومجازيكم عليه، وأمّا الموصوفة: فالتَّنكير فيها للتَّعظيم؛ أي: أنَّ جدالكم بالباطل الذي كنتم تتَّخذونه لعبةً وتسليةً وحسبتُموه هيِّنًا هو شيء عند الله عظيم، وسيجازيكم به العقاب الأليم.

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، وحصول الشَّيء مرَّة بعد مرَّة، وهذا يعين على استحضار الصّورة، فكأنَّ الحدث يقع الآن ويراه القارئ بعينه، وهذا هو المقصود هنا، فالمعنى: مهما تعملوا من عمل فالله تعالى به عليم.

في التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، واستحضار الموقف والحال

وفي هذا دليل على أنَّ جدال أهل الباطل مستمرٌّ إلى قيام السّاعة، لن يفتروا عنه، فلا ينبغي لأهل العلم أن يناموا عن هؤلاء، ولا أن يتركوا المسلمين فريسة لأهواء السُّفهاء.

غرض حذف مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: من الأباطيلِ التي مِن جُملتها المجادلةُ، فمجازيكم عليها[3].

الحذف لإفادة التَّعميم، فالله بكلِّ شيء عليم

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 205.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 535.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 119، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 188.

فالحذف لإفادة التَّعميم، فالله سبحانه بكلِّ شيء عليم، ولا يعزب عنه من شيء دقَّ أو جلَّ، وفي هذا ما فيه من التَّهديد والتَّرعيب.

بلاغة الإيجاز بالحذف في الآية:

حذف ما يُعلَمُ بليغ فصيح، وتغني الإشارة إليه عن التّصريح

في الآية محذوف حُذِف لدلالة الباقي عليه، والمعنى: الله أعلم بما تعملون وما نعمل، وأيضًا يحكم بيننا وبينكم؛ يعني: أنَّه عالم بأعمالنا فهو يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة[1].

وفي إيثار ذِكْرِ عملِ القوم المجادِلينَ دون عمل خصومهم؛ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين موقنون بأنَّ الله تعالى يعلم ما يعملون؛ فهم يخافون الله ويتَّقون، وإن عصى المجادلون اللهَ فيهم فالمؤمنون يراعون اللهَ فيهم ويطيعون.

أمّا المجادلون فقد ظنّوا أنَّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون، وهذا ظنٌّ كافرٌ أرداهم فأصبحوا خاسرين.

فنصَّت الآية على أنَّ الله تعالى عالم بأعمال هؤلاء المجادلين لتنزيلهم منزلة المنكِرين.

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾:

الله تعالى يحكم بين المختلفين أجمعين، وإن الجحيم مأوى الكافرين

لمّا أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالإعراض عنهم، وكان ذلك شديدًا على النَّفس لتشوُّقها إلى النُّصرة؛ رجّاه في ذلك بقوله تعالى مستأنفًا تحذيرًا لهم: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2].

فهو كلام مستأنَف ليس من المقول، فهو خطاب للنَّبيِّ ﷺ، وليس خطابًا للمشركين بقرينة قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾، والمقصود: تأييد الرَّسول ﷺ والمؤمنين[3]، وتسلية النَّبيِّ ﷺ ممّا كان يلقى[4]، وتأكيد هذا التَّهديد للمشركين والإعراض عن مجادلتهم[5].

(1) الواحدي، البسيط: 15/ 492.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 564.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.
(5) طنطاوي، الوسيط: 9/ 340.

دلالة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

مَن وافق الصراط المستقيم فهو من أهل النعيم، ومن زاغ فهو من أهل الجحيم

أفاد تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ التَّخصيص وتقوية الحكم، أمّا التَّخصيص فإنَّ الفصل بين الخلائق ليس لأحد إلّا لله الحَكَم العدل سبحانه.

وأمّا تقوية الحكم فإنَّها حاصلة من إعادة الإسناد؛ ذلك أنَّ الفعل ﴿يَحۡكُمُ﴾ يتضمَّن ضميرًا مستترًا يعود على المسند إليه، فكأنَّ الإسناد قد أُعيد مرَّتين، وهذا للتَّوكيد وتقوية الحكم[1].

دلالة التّعبير بـ﴿يَحۡكُمُ﴾ مادّة وصيغة:

الحُكم منعٌ لأجل الإصلاح ومنع الأخطاء، ويأتي بمعنى الفصل والقضاء

أصل الحكم: المنع لأجل الإصلاح، ومنه سُمّيتِ اللِّجامُ: حَكَمَةَ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنعها من النُّشوز أو الفرار أو التَّصرُّف على غير مراد صاحبها.

والحِكمة هذا قياسها؛ لأنَّها تمنع من الجهلِ، والحُكمُ، وهو المنع من الظُّلم[2].

فالحاصل أنَّ معنى الجذر يدور حول الضَّبْط الذي يمنع التَّسيُّب ويمَكِّن مِن جَعْل الشَّيء - أو جريانه - على ما ينبغي ويُراد.

ومنه جاء الحُكم بمعنى: القضاء؛ لأنَّ القاضي يَضْبط أمر كلِّ مَن الفريقين ويفْصِل، مانعًا أن يدخل أيٌّ منهما على الآخر في حقِّه[3].

وهذا هو المراد هنا، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: يقضي بينكم، فالحكم هنا يعني القضاء، وليس الفصل؛ لأنَّ الحكم يستعمل بين أفراد الأُمَّة الواحدة، كما هو الحال في هذه الآية، والفصل يكون بين الأمم المختلفة أو بين الأنبياء والأمم، والفصل: يعني الحكم بأن يذهب فريق إلى الجنَّة وفريق إلى السَّعير[4].

(1) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (حكم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حكم).
(4) الهلال، الثري الجامع: 7/ 349.

فائدة التّعبير بالظّرفيّة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وتقديمها:

في الفصل بين المتجادلين إبعاد للكفّار وإدناء للمؤمنين

أفاد التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ معنى الفصل والإبعاد، فيكون المحكوم بينهم يوم القيامة على فريقين: فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير، فكما أعرض المجادلون المنازعون عن سلوك سبيل هذا الدّين، واتَّبَعوا غيرَ سبيل المؤمنين، وأنكروا كلَّ ما أُقيمَ عليه دليلًا، واتَّخذوا سبيل الغيِّ سبيلًا - كان جزاؤهم مِن جنس أعمالهم، حيث يُضرَب بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة بما يَفْصِلُ بينهم مفرِّقًا ومميِّزًا، بِسورٍ له بابٌ، باطنُه فيه الرَّحمة وظاهره مِن قِبَلِه العذاب، ويقال للبُعَداء: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: 59]، فيمضي كلٌّ منهم إلى غاية سبيله التي سلكَ في الدُّنيا، فيُحشَر المتَّقون إلى الرَّحمن وفدًا، ويُساق المجرمون إلى جهنَّم وِردًا.

نكتة العدول عن (بيننا وبينكم) إلى النَّظم المتلوّ:

اتَّبع المجادلون أهواءهم فتفرَّقوا، وجادلوا بالباطل فتزندقوا

يلاحظ أنَّ الحقَّ سبحانه لم يقل: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كما يقتضي المعنى؛ لأنَّهما طرفان يتجادلان، وكأنَّ الحق ﷻ يقول لرسوله ﷺ: اتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم، ولن يدوم خلافهم معك، بل سينقلبون على أنفسهم، يخالف بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ لأنَّ الخلاف في شيء واحد ينشأ عن هوى النَّفس، وهوى النَّفس ينشأ من الحرص على السُّلطة الزَّمنيَّة، يعني: أرح نفسك، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون[1].

فائدة ذكر الظّرفيّة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

يترتَّب على الحُكم في الآخرة إمّا ثواب وإمّا عقاب، وفي هذا ذكرى لأولي الألباب

يفيد التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معنى تفويض الحكم لله تعالى، كأنَّه قيل للنَّبيِّ ﷺ: لن يؤمن ممَّن ينازعك إلّا مَن قد آمَن، وما أنتَ عليهم بحفيظ؛ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، ولا تلتفت لما

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9923.

فيه يجادلون، وكأنَّه قيل للكافرين: اعملوا ما شئتم - تهديدًا - فمهما عملتم من عمل فإنَّكم عنه مسؤولون، وبه مجزيّون.

وفي هذا إدماج بالتَّأكيد على أنَّ القيامة حقٌّ لا مراء فيها، فيكون هذا ردًّا على الكافرين المنكرين للبعث، وفيه أيضًا إثبات للثَّواب والعقاب؛ إذ لا معنى للحُكم إلّا ما يترتَّب عليه من إثابة المؤمنين وعقوبة الكافرين؛ "يعني: ما اختلف فيه المؤمنون والكافرون، فيكون حكمه أن يُدخِلَ المؤمنين الجنَّة، ويُدخِلَ الكافرين النّار"[1].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

(أل) في القيامة للعهد الذِّهنيِّ، فالمخاطَبون على علمٍ بها، أمّا المؤمنون، وأهل الكتاب فهم يؤمنون بها، وأمّا المشركون - وإن كانوا ينكرونها - فقد قَرَعَ ذكرُها أسماعهم مرّات ومرّات، ولكنَّهم كانوا عنها في سُبات! واستكبر المجادلون عن الإيمان بالقيامة استكبارًا.

نكتة التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا﴾:

الحُكم في الآخرة موكولٌ إلى الله، ولن يفصل بين العباد أحدٌ سواه

أفاد التَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمْ﴾ معنى أنَّ حكم الله تعالى وقضاءه بين الخصوم سيكون في نهاية الفصل، وغاية العدل، فسوف يجازي كلًّا بما عمل، دون أن تزر وازرةٌ وزرَ أُخرى.

فكأنَّ هذا القضاء حدٌّ قاطع، وسيف ماضٍ، أو كأنَّه إمامٌ عادل دخل بين الخصوم في تنازعهم، فجلس وسطهم، ففصل بينهم في هذا الأمر الذي اختلفوا في تفاصيله، فآمَن به المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وخاض الكافرون فيه بغير علم، فحَكَم حُكمَه وفَصَلَ بينهم، وأعطى كلًّا جزاءه!

فما أحْكَمَهُ من قضاءٍ، وما أعْدَلَهُ من جزاءٍ، وما أرْحَمَهُ من إلهٍ وسِعَتْ رحمتُه الأرض والسَّماء!

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن: 3/ 189.

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

اختلف منازعو النَّبيِّ ﷺ في أمرٍ ظنّوه هيّنًا، وهو عند الله عظيم

(ما) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة[1]: فإنْ كانت الموصولةَ فهي بمعنى (الذي)، غير أنَّها أعمُّ من (الذي) وأشمل، والذي كانوا فيه يختلفون هو ما عبِّر عنه بالأمر في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الحج: 67][2].

وتخصيصه بأنَّه هو الذي سيُحكَم فيه بين المختلفين كونه سببَ خلافِهم، ولبيان أهمّيَّته وخطره، وعلى هذا التَّأويل تكون جملة: ﴿كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ لا محلَّ لها صلة الموصول (ما)، وجملة: ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ في محلِّ نصب خبر ﴿كُنتُمْ﴾[3].

وإن كانت الموصوفة فهي نكرة بمعنى (شيء)؛ أي: يحكم الله بينكم في شيءٍ كنتم فيه تختلفون، وقد يفيد هذا التَّنكيرُ التَّعظيمَ؛ أي: كنتم تختلفون في شيء تحسبونه هيِّنًا، وهو عند الله عظيم، وفيه تسلية للنَّبيِّ ﷺ، وتهديد شديد ووعيد أكيد للكافرين، وعلى هذا التَّأويل تكون الجملة بعدها في محلِّ جرٍّ صفة لـ(ما) الواقعة في محلِّ جرٍّ بـ(في).

نكتة دخول (كان):

مَن امتزج بالكفر قلبُه، عمي عن سبيل الهدى لُبُّه

التَّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمْ﴾ يفيد أنَّ اختلافهم هذا ليس طارئًا عليهم، بل هو ممزوج بأنفسهم حتَّى صار كالجِبِلَّة فيهم[4].

وفي هذا تسلية للرَّسول الكريم ﷺ حتَّى لا يهلك نفسه حزنًا على آثارهم، فهؤلاء لو علِم الله فيهم خيرًا لأسمعهم، ولكنهم مَرَدوا على الكفرِ والمِراء، فما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون!

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(3) محمود صافي، الجدول: 9/ 144.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾:

وَلَجَ المجادِلون في بواطن الأمر لتشكيك المسلمين، وصدِّ النّاس عن دين ربِّ العالمين

أفاد التّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ تصوير الأمر المختَلَف فيه كالوعاء المحيط بما فيه، ودلَّ هذا على أنَّ الذين خالفوا الدّين واختلفوا فيما بينهم لم يكتفوا بالوقوف على الظَّواهر كحال مَن يقف على شاطئ البحر يتهيَّب النُّزول فيه، بل إنَّهم ولَجوا في بواطن الأمر بغرض التَّشكيك فيه، ولو أنَّهم ابْتَغَوا الهدى لَشَرَح الله صدورهم للإسلام، ولكنَّهم أعرضوا فطبع الله على قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمَن يهديهم مِن بعد الله؟!

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾ على الخبر:

إنَّما نشأ الخلاف بسبب بغض المشركين للشَّرع القويم، فخُصَّ السَّبب بالتَّقديم

في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ قُدِّم شبه الجملة على خبر النّاسخ لإفادة التَّخصيص؛ أي: ما كنتم تختلفون فيه خاصَّة[1].

وفي هذا دليل على أنَّ الاختلاف إنَّما نشأ بسبب هذا الدّين، فمَن أعرض عنه مِن المجادلين والمنازعين لعدم موافقته أهواءهم الفاسدة قد اختلفوا مع مَن آمن به واتَّبعه، كونهم على سبيل غير سبيلهم الضّالَّة، ثمَّ إنَّ المجادلين قد اختلفوا فيما بينهم بسبب تنوُّع أهوائهم وتناقضها وتضاربها؛ فلذلك قُدِّم شبه الجملة لإفادة هذا الغرض.

نكتة التّعبير بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ مادّة وصيغة:

خلَّف المجادلون دين الله وراء ظهورهم، وامتلأت بالحقد عليه بواطن صدورهم

الخَلْفُ: ضدُّ القُدّام، هذا هو الأصل في معناه، ومنه تتفرَّع مشتقّاته، وعليه تدور معانيها، فمنه: الاختلاف، وهو: عدم الاجتماع على رأي أو موقف أو حُكم أو غيره، كأنَّ كلًّا يذهب إلى ما جعله الآخر خَلْفه، فيأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلف).

والخِلاف أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين، ولمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول قد يقتضي التَّنازع استُعير ذلك للمنازَعة والمجادَلة، حيث يذهب كلُّ واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر تنازُعًا وجدالًا[1].

فالتَّعبير بهذه المادَّة خصوصًا يصوِّر مدى إعراض القوم عن الدّين، وأنَّهم قد تركوه وراءهم ظهريًّا بعد أن جادلوا فيه وفي دلائله وبيِّناته، وأنَّهم ليسوا على قلب رجل واحد، وإنَّما يخالف بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، وأنَّ اتِّفاقهم في معارضة الدّين لا يعني اتِّفاقهم في أصل الأمر، بل إنَّهم يرتضون أيَّ شيء بشرط أن يكون مخالفًا لهذا الدّين خصوصًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدال والحوار:

الجِوارُ أعمُّ من الجِدال

الجيم والدال واللام أصلٌ واحدٌ، وهو من باب استحكام الشيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلام[2]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازَعة والمغالبَة، وأصله مِن: جَدلتُ الحَبْلَ، أي: أحكمتُ فتْلَه؛ فكأنَّ كلًّا من المتجادلَيْنِ يَفْتِلُ الآخرَ عن رأْيه[3].

والجِدال محمودٌ إذا كان للوقوف على الحقِّ وإلا فمذموم[4]؛ فقد يُراد بالجِدال مطلَقُ المخاصمة[5]، والمجادلة مذمومة في الأشياء الظاهرة غير المحتملة للجدال، كقول الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4][6]، ومِن الجِدال المحمود قول الله ﷻ:

(1) الراغب، المفردات: (خلف)، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 399.
(2) ابن فارس، المقاييس: (جدل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (جدل).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (جدل).
(5) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]؛ أي: افتِلْهم عمّا هم عليه، غير فظّ ولا غليظ القلب في ذلك[1].

أمّا الحِوار: فهو المراجعة والمرادّة في الكلام[2]، والمحاورة: المجاوَبة[3]، ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[4]، وقال اللّه ﷻ: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: 34]؛ أي: يراجعه في الكلام ويجاوبه[5]، ويقال: كلَّمْتُهُ فما أحارَ إليَّ جوابًا، وما رجع حَويرًا ولا حَويرةً ولا مَحورةً ولا حِوارًا، أي: ما ردَّ جوابًا[6].

ويتبيَّن ممّا سَبق أنَّ الحوارَ أعمُّ من الجدال؛ فإنَّ الجِدال هو الحِوار الذي يصرف فيه كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وأمّا الحوار فلا يُشترَط فيه أن يكونَ على سبيل المنازعة والمغالبة، وصرفِ الآخر عن رأيه.

العمل والفعل والصُّنع:

الفعلُ أعمُّ من العملِ والصُّنع

الفِعلُ عامٌّ لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بعلم أو بغير علم، وقَصْدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجماد[7]، والعملُ: كلُّ فعل يكون من الحيوان بقصد؛ فهو أخصّ من الفعل[8]، لأنَّه يُقال لِما كان من الحيوان دون ما كان من الجماد ولِما كان بقصد وعلم دون ما لم يكن عن قصد وعلم[9]، والصُّنع: إجادة الفعل، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسب الصُّنعُ إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفِعل[10].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 232.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حور).
(3) الجوهري، الصحاح: (حور).
(4) ابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (حور).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 403.
(6) الجوهري، الصحاح: (حور)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 403.
(7) الراغب، المفردات: (فعل).
(8) الراغب، المفردات: (عمل).
(9) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 322.
(10) الراغب، المفردات: (صنع).

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الصُّنعَ أخصُّ المعاني الثلاثة[1]، والفعلَ أعمُّها، والعملَ أوسطُها؛ فكلُّ صُنعٍ عمل، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعل، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[2].

(1) الراغب، المفردات: (فعل).

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 323.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»